خواطر من الأرض المقدسة

للأستاذ محمد محمود بجيح
شيخ الطريقة السطوحية

بسم الله الرحمن الرحيم ، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ، صدق الله العظيم .

الرحلة إلى الحج مقتضاها أن يغادر الحج وطنه ويترك أهله وولده . وماله ومتاعه ولفراق ماذكر أثر أى أثر فى النفس المؤمنة المقبلة على ربها ترجو رضاه . وتبغى قبوله . هذا الأثر الكبير يسموا بها من عالم الماديات . إلى عالم الروحانيات . ويعلو بها من عالم الزهو والغفلة والهو إلى صفاء ونقاء اليقظة والشعور .

الحاج بتركه الديار والأهل والسمار . يتذكر فراق الدنيا وما فيها من متاع بتركه معاشريه ومخالطيه الموقوت يتذكر تركهم النهائى حينما يرحل من الدنيا إلى العالم الآخروى ، ويستعيض عن متاع دنياه بقبول مولاه . وعن أنس العشيرة . أنسه بربه ونظره فى ملكوته . بذلك ينزل فى قلبه ويفيض نور المعرفة وإشراقه الطاعة . ويتحول من إنسان له شهواته إلى ملك ليس له إلا طاعاته . قد فنى الجسد فى الروح . وانعكس البصر فى البصيرة . حتى إذا ركب سفينة الحجاج . سلم قياد نفسه وزمام أمره لمسير الأفلاك وملهم الأملاك . وكلما سارت السفينة أميالا كلما هامت نفسه شوقاً وحبا فى البيت وبانيه والبقيع وساكنيه . فتتحول نفسه الحالكة من الأطماع والأغيار . إلى نفس نقية وقلب لين خاشع خاضع صاف نقى لا يفكر إلا فى خير ولا يسعى إلا إلى بر . ومتى كان الإنسان كذلك أحس برباط متين برب العالمين . إليه يفزع فى الملمات ويستنزل منه وحده الرحمات . ويحقق به المرادات . وحينما يصل إلى الميقات . ويلبس ملابس الإحرام ويتجرد من المخيط . يتذكر ساعة النشور يوم يخرجون من الأجداث . لا غنى ولا فقير . ولا صعلوك ولا أمير . يخرجون من أجداثهم . فزعين إلى ربهم . يفزع الحاج من الميقات إلى مولاه ملبى النداء .

ممتثلا الأمر . ملبيا . مهللا ذاكرشاكرا . الرؤوس عارية . والقلوب ضارعة خاشعة . والأكف مبسوطة مرفوعة . دعوات صاعدات . تشرح قلب الكليم . وتشفى برأ السقيم والتجليات تملأ العقل وتضىء اليقين .

وحينما ترنوا ببصرك إلى الحجيج زمرا زمرا وكأنهم كتائب رسول الله . غزاة فاتحين . وجنود الله المجاهدين . ولا شك فهم فى أعلى مراتب الجهاد . الجهاد الأكبر حيث يجاهدون النفس وشهواتها . وينازلون القلب ونزواته . والشيطان وغواياته . هذا جهاد وهذا جهاد . بل هذا جهاد أصغر . وذاك جهاد أكبر . وحالة التجرد هذه من الثياب المعهودة . والحلل المألوفة المعروفة . لأكبر مذكر بحالة الإنسان يوم البعث والنشور . والخروج من القبور . حفاة عراة . ينظرون رحمة الرحمن الرحيم . وبره وجوده العميم .

فإذا ما تذكر الإنسان البعث وما يعده من حشر ونشر وحساب وعقاب . هجر المعاصى . واستمسك بالطاعة . وطلق الدنيا وزخارفها . والحياة وما فيها من غرور وعمل لليوم الموعود . اليوم الذى فيه كل امرىء بما كسب رهين . يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

فإذا ما وصل الحاج إلى الكعبة ووقع نظره على البيت الكريم تذكر هذا البناء العظيم ومن بناه بأمر رب العالمين .

تذكر نعمة الله على المسلمين . حيث طهر هذا البيت الكريم من الأصنام . يوم أن انتصر الحق على الباطل . وردد رسول رب العالمين . وقل جاء الحق وزهق الباطل ن الباطل كان زهوقا . يوم أن كسر سيف الإسلام خالد بن الوليد الأصنام وسقطت مفككة الأوصال . يوم أن قال . يا عزى . كفرانك . لا سبحانك . إنى رأيت الله قد أهانك . يتذكر الحاج ويتمثل نعمة ربه . كيف بدل بنور الإسلام كلمات مرك والوثنية .

حينما ينظر الحاج إلى الكعبة وتاريخها . ويتذكر أم أسماعيل ووليدها . حيثما أسكنهم الخليل بجوار البيت ولا أنيس ولا جليس ولا طعام ولا ماء . ويترك الوالد الرحيم ولده . متوجها إلى مولاه بقلب واجف رحيم . ربنا . إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم . وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

ثم يرحل وقد ترك زوجه وولده لمولاه الذى أمره . وهاجر تقول لن يضيعنا ربنا : ثم تأتى رحمة الرحمن . وتنبع عين زمزم ، بماء فيه الغذاء . وفيه الشفاء .

ويعمر البيت وتأتى قبيلة جرهم تجاور هاجر وولدها إسماعيل وتنشأ مكة ويأتى من سلالة إسماعيل قريش ومن قريش سيد الأولين والآخرين . خاتم الأنبياء وإمام المرسلين .

هذه الذكرى وتلك العبرة . توحى إلى النفس شيئين كبيرين . الأول أن امتثال العبد لربه واجب وفيه سعادة كل السعادة .

الثانى أن من يتوكل على مولاه عنـــد اضطراره تدركه عناية من الله وتعمه رحمته .

من هذا يتعلم المرء أن يلوذ بربه عند الكروب ويفزع إليه وقت الشدائد فيذهب كربه وتهون شدته . وتتبدد وحشته .

وعندما يرى الحاج جموع الحجيج متحدين فى مظاهر واحدة ودعوات واحدة وصلاة واحدة وطواف واحد يدرك ما للوحدة من أثر وبأن هذه الجموع التى وفدت من شتى بقاع الأرض وإن اختلفت ألوانهم وألسنتهم اتحدت قلوبهم . والتقت . أغراضهم البيت واحد . والدين واحد . والرب واحد . والرسول واحد كل ذلك يوحى بحكمة التآزر والتعاطف والتآخى ونبذ الخلاف والتشاحن الذى يحيل القوة ضعفا والكثرة قلة .

وعندما يتذكر الحاج أن مكة هى البلد الأمين . هى مولد خاتم المرسلين ويعرف أن من هذا البلد سطع نور الهداية . وسطع نجم محا الظلمة . وأزال الغمة . وحول شعبا . كان يئد البنات . ويعبد الصنم . ويذل الضعيف ، وينصر الشريف . أى الغنى كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذاسرق الضعيف أقاموا عليه الحد . هذه كانت فلسفتهم فى الجاهليه . حتى جاء الاسلام بعدالة فقال رسول الله . والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها .

يتذكر الحاج ، مالاقاه المسلمون الأولون فى البلد الأمين فى أول الإسلام من تعذيب وتشديد يتذكر بلالا . وقد ألقوه فى رمضاء مكة على شدة حرها والحجارة كأنها شواظ على صدره . ويقول له مولاه . أكفر بمحمد وإله محمد . فيقول أحد . أحد . يتذكر الحاج . ما أصاب شهداء الإسلام الأول فى هذا البلد من تعذيب

واستشهاد . يتذكر عمار بن ياسر وسمية وغيرها . فيدرك قيمة هذا الدين المتين . وما بذله أسلافنا الأقدمون . فيعض على دينه بنواجذه . ولا يفرط فى شىء منه حتى لا تزل قدمه .

وحينما يتفرس الحاج فى وجوه فقراء مكة . يتذكر دعوة سيدنا إبراهيم « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات » فيجود بما يستطيع حيث الحسنة مضاعفة الأجر ، وليست لعشرة أمثالها بل تكون بألف من أمثالها والله يضاعف لمن يشاء .

وحينما يتوجه الحاج إلى المدينة لزيارة قبر الرسول الكريم ويتذكر استقبال أهل المدينة لرسول الله بالنشيد والتهليل والتكبير . ويتذكر قول الرسول الكريم وهو خارج من مكة وطنه ومسقط رأسه وبلد عشيرته وأهله يتذكر قول الرسول الكريم اللهم إنك أخرجتنى من أحب البلاد إلى فأنزلنى فى أحب البلاد إليك . فينزل ومن معه من المهاجرين على إخوانهم الأنصار المؤمنين .

والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . فتطيب نفسه ، ويصفو قلبه ، ويثلج صدره يشم نسائم المدينة وعطرها ، ويرى وجوه أهلها وخضرة مروجها ، ويحس بقلبه أى بعين بصيرته الأنوار المحمدية تتلألأ فى جنبات الحرم ، بل فى أرجاء المدينة بل فى جوانب الدنيا . فيقول : الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

فيسلم على سيد الخلق وصاحبيه أبا بكر الصديق وعمر الفاروق .

ويزور البقيع وفيه الأقمار الأطهار من المهاجرين والأنصار .

هذه الرحلة أيها الإخوة الأحبة . هى صك الغفران ، وطريق رضاء الرحمن ، وباب القبول ، وجسر الوصول .

أما الكعبة أيها الأحباب فقد ورد أنها تحشر كالعروس المزفوفة يوم القيامة وكل من حجها يتعلق بأستارها ن يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها .

وفى الخبر أن الحجر الأسود ياقوتة من ياقوت الجنة وأنه يبعث يوم القيامة له عينان ولسان ينطق به ويشهد بكل من استلمه بحق وصدق .

وورد أن سيدنا عمر بن الخطاب استلم الحجر وقبله وقال إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ثم بكى حتى علا نشيجه والتفت إلى ورائه فقال لسيدنا على: يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات . وتستجاب الدعوات . فقال على رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع قال . وكيف ذلك . قال : إن الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتاباً ثم ألقمه هذا الحجر فهو يشهد للمؤمنين بالوفاء ويشهد للكافرين بالجحود . وذلك هو معنى قول الناس فى الاستسلام . اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك . . . .

وقد روى ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الحجر الأسود يمين الله عز وجل فى الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه » .

وأما الوقوف بعرفه ففيه يتمثل الحاج الموقف فى اليوم الآخر وانتظار الناس للانصراف راجين رحمة رب العالمين — وأما رمى الجمار . فانقياد لأمر الرحمن الرحيم . وتشبيهاً بالخليل إبراهيم حيث عرض له إبليس اللعين ليثنيه عما أنتوى فعله مرضاة لرب العالمين . فرماه بالحصى رفضا لما يوسوس به ، وعدم التفات إليه .

كل هذه الأفعال وإن كانت حكما تعبدية إلا أنها آيات بينات ساطعات . على أن لكل عبارة حكمة ولكل نسك فائدة .

والحج أيها الأحباب مؤتمر إسلامى عام يجمع بين المسلمين من جميع بقاع العالم وهو آية تبرز معنى وحدة الصف الإسلامى . وأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة . ومن حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ومن وقف بعرفه فظن أن الله لم يغفر له فقد أساء الظن بربه .

جعل الله حجنا مبروراً ، وسعيا مشكوراً ، وذنبا مغفوراً ، وجمع كلمة المسلمين جميعا . وجعلهم صفا واحداً ، ومنحهم النصر على أعدائهم . ومكن لهم فى أرضهم . ورفع لواء الإسلام وأعز المسلمين ، وألف بين القلوب ، وأزال الكروب ، ونصر قادة العرب أجمعين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟